

مائة عام على استشهاد "نسر الثورة" – روزا لوكسمبورغ – الحلقة الاولى

الدكتور صالح ياسر

الاهداء:

الى الذين يواصلون النضال ضد الاضطهاد والعسف والاستغلال بمختلف اشكاله

الى الذين يعمدون بكفاحهم المتعدد الاشكال الطريق نحو وطن بهي وجميل

الى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل بمناسبة الذكرى المئوية الاولى للاستشهاد البطولي والمأساوي
للتوروية الباسلة والمفكرة الماركسية روزا لوكسمبورغ، على أيدي الجنود الالمان في 1919/01/15.

مقدمة

هذه الدراسة هي محاولة لفهم الخطاب الإقتصادي لروزا لوكسمبورغ ضمن الشروط الاجتماعية/التاريخية التي جعلت ظهوره ممكناً وضرورياً. ولاشك أن الحديث عن الخطاب اللوكسمبورغي يستلزم تحديد:
- أطروحة المركزية.
- المفاهيم الكبرى المحددة لذلك الخطاب.

ونظراً لأن هذا الخطاب خطاب متعدد الصُّعد، يندمج فيه الإقتصادي بالسياسي بالفكري، السجال بالعلم، الإيديولوجيا بالممارسة السياسية.... الخ، لذا فإن إنجاز هذه المهمة سيكون عسيراً. ومنعاً لأي التباس فإن هذه الدراسة تطمح لأن تكون محاولة لتجاوز القراءة الإحتفالية بخطاب روزا لوكسمبورغ، أو القراءة التحليلية الصرفة التي تكتفي بالإنصات الساذج الى ما تقوله الكاتبة فتكون بذلك إستعادة لكتاباتها أو إعادة لترتيب تلك الكتابات مع " الاجتهاد " في إظهار الوحدة وقدرتها على " دحر الخصم الطبقي ".

الهدف - على سعته - إنتاج تركيب يهدف الى إعادة بناء المشروع النظري لروزا لوكسمبورغ - في الحقل الإقتصادي - بما يسمح في فرز حدوده وفعاليتها التاريخية وقدرته على فهم الواقع الذي كان سائداً آنذاك، وجدواه المعرفية وراهنيتها كذلك. إنه محاولة تحديد وتحليل الأبعاد الفكرية التي تغذت منها روزا لوكسمبورغ وصاغت، إستناداً الى ذلك، مشروعها الفكري الكبير والمتنوع، ومساهمتها الاقتصادية الهامة في هذا المشروع.

ومن اجل الاحاطة بالاشكالية المطروحة، بجوانبها المتعددة، فإن هذا العمل يتألف من سبع حلقات وخاتمة.

تكرس الحلقة الاولى الموسومة: مرجعيات الخطاب الإقتصادي اللوكسمبورغي للحديث، وبشكل مختصر، عن روزا لوكسمبورغ تتضمن لمحة تاريخية مكثفة عن حياتها القصيرة والثرية في الوقت نفسه، مع التركيز على أهم المحطات فيها. ثم تبرز هذه الحلقة كذلك الخطاب اللوكسمبورغي، أطروحة المركزية ومفاهيمه الكبرى، التي قادت الى ارتقاء التحليل من مستوى المعارك السياسية المباشرة الى مستوى الموقف النظري المتكامل، الذي يعبر في حد ذاته عن اكتمال العمارة النظرية، التي اجتهدت روزا لوكسمبورغ في بنائها حجراً حجراً وهي تساجل وتصارع ضمن المعسكر الواحد - الماركسي- أو مع المعسكرات الأخرى، في عصرها الصاخب المليء بالمعارك، وما أكثرها. ويعد هذا الفصل بمثابة مقدمة تساعد القارئ، لاحقاً، على إمطة اللثام، عن جذور المفاهيم اللوكسمبورغية، وعن تلك العلاقة النظرية والفكرية التي أدت الى أن تثق " الوردة الحمراء " ثقة عميقة بانهييار الرأسمالية الحتمي، وفي المهمة التاريخية للطبقة العاملة، وفي عبقرية الشعب، وفي الثورة، وفي الإشتراكية والتقدم. وفي المدخل ايضاً حديث عن تطور علاقة روزا لوكسمبورغ بالماركسية والمرجعيات التاريخية والنظرية التي ساهمت في بلورة فلسفتها وخياراتها الاستراتيجية الكبرى، كمفكرة ومنظرة ماركسية من طراز كبير.

اما الحلقة الثانية من هذه الدراسة فتظهر تحت عنوان: الطريق الى النظرية - بواكير النظرية الاقتصادية لروزا لوكسمبورغ، وتتألف من ثلاثة مباحث. يستعرض المبحث الاول الاعمال الاقتصادية المبكرة، وهما " تطور الصناعة في المملكة البولندية " ، وهو أول عمل اقتصادي لها، وكان بمثابة أطروحة علمية دافعت عنها في زيورخ (سويسرا) عام 1897 وحصلت، في ضوءها، على درجة الدكتوراة في العلوم الاقتصادية، وتم نشرها في مدينة لايبزك (المانيا) بعد عام من مناقشتها. يعد هذا

الكتاب أول عمل نظري كبير لهذه الكاتبة والمناضلة الثورية، كما أنه يعد أول عمل نظري وضع على عاتق مهمة اضاءة الاوضاع الاقتصادية للرأسمالية في بلد محدد، باستخدام المادية التاريخية كمنهج للتحليل. في حين كان عملها الآخر الموسوم: " إصلاح إجتماعي أم ثورة؟ " مرتبطاً بالوضع الذي كان سائداً في الحركة العمالية الألمانية. ولاشك أن التحليل الاقتصادية الواردة في هذا الكتاب، وكذلك في " الميليشيا والعسكرة " ، تحتل مكاناً مهماً، وتتمتع بأهمية كبيرة بالنسبة لتشكيل نظرية تراكم رأس المال لروزا لوكسمبورغ. أما المبحث الثاني فمكرس لعرض مساهمتها بشأن ظهور "التحريفية" في الحركة العمالية الألمانية، والتي قدمت نقداً قوياً لاطروحات أبرز منظري هذا الاتجاه، وفي مقدمتها تلك القائلة بالقدرات التكيفية للرأسمالية، والمتمثلة بزوال التناقضات، مؤكدة على تعمقها واشتدادها. ومن جهة أخرى، أثارت روزا لوكسمبورغ الانتباه الى أهمية تناقضات الرأسمالية الأخرى. وأشارت هنا الى أن الكولونيالية تُنتج التناقض بين مصالح الدولة التي تنتمي إليها المستعمرة، وبين المستعمرة التي تتنامى فيها نزعات متزايدة للاستقلال الاقتصادي. وبالنسبة لروزا لوكسمبورغ، تتمثل المعضلة الكبرى للإمبريالية بضرورة البحث عن أسواق جديدة للتصريف، كما تمثل الحروب ظاهرة ملازمة للإمبريالية. في حين يعرض المبحث الثالث الخطوط الأساسية لكتاب روزا لوكسمبورغ: " مقدمة للاقتصاد السياسي "، والذي كانت بدايته عبارة عن محاضرات أعدتها الكاتبة لتقديمها في المدرسة الحزبية التابعة للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني SPD . يمكن القول أن تناول روزا لوكسمبورغ لموضوع الاقتصاد السياسي لم يكن ناجماً عن رغبتها في تطوير التراث الماركسي على الصعيد النظري فقط، بل انه كان مرتبطاً بحاجة الحركة العمالية آنذاك، التي لم تكن تتخطى، في حينه، حدود التحليل الانتقادي للنظام الرأسمالي، وذلك ضمن مسعاها الدائب لبلورة نظريتها بشأن المرحلة التاريخية التي كانت تمر بها الرأسمالية في حينه، وفي بناء ادوتها المنهجية والاعداد لكتابها الاهم " تراكم رأس المال " .

وتظهر الحلقة الثالثة تحت عنوان: القضايا المثيرة للجدل بصدد إشكالية الإمبريالية والعمل الإقتصادي الرئيسي لروزا لوكسمبورغ " تراكم رأس المال " . من المفيد الاشارة، هنا، الى أن الجدل الذي دار حول مفهوم الإمبريالية منذ أواخر القرن التاسع عشر، ولا يزال حتى الان، هو جدل أبعد ما يكون عن الترف الفكري، لأنه عكس ويعكس صراعاً فكرياً بين خطين متعارضين: خط القوى المستفيدة من الإمبريالية وخط القوى المتضررة منها والمناهضة لها. وقد انتج الصراع الفكري هذا نظريات مختلفة حاول اصحابها، ومن مواقع ايدولوجية وسياسية متباينة ولغايات مختلفة، فهم جوهر وآليات الإمبريالية واستشراف تطوراتها المستقبلية. وفي هذا السياق تأتي مساهمة روزا لوكسمبورغ. وكعادتها، منذ البداية في اعمالها المبكرة، سعت لأن تصوغ مفهوماً الخاص للإمبريالية باعتبارها مرحلة متميزة وضرورية للرأسمالية. في هذه الحلقة، يتم استعراض مسعى مؤلفة "تراكم رأس المال " للإجابة على سؤاليين هامين بالنسبة لها وهما : ما هي العلام المميزة للإمبريالية؟ وهل هناك عوانق أمام تطورها؟. وبعبارة أخرى، يمكن القول أنها كانت تريد التأكيد من مدى صدق البراهين " التحريفية " وإمكانيات تراكم رأس المال. وتشكل خاصية الرأسمالية، كتشكيلة، نقطة الانطلاق لتأملاتها الفكرية. وازضافة لذلك نشير الى أن هذه الحلقة تضم أربعة مباحث.

يتضمن المبحث الاول استعراض الإشكالية والفكرة الأساسية للكتاب وهي " الرأسمالية الصافية " والظروف المحيطة بالعمل. أما المبحث الثاني فيركز لعرض هدف البحث والتمثل بسعي الكاتبة لإثبات استحالة التراكم في نظام رأسمالي مغلق، وبالتالي تفسير ظاهرة الإمبريالية كأداة لتوفير شرط (الإنتفاع) اللازم لتحقيق نمو الرأسمالية عبر التوسع. ويسعى هذا المبحث لتبيان الكيفية التي عبرت فيها روزا لوكسمبورغ، عن رأيها بأن الكولونيالية، بالإضافة الى القطاعات غير الرأسمالية داخل الدول الرأسمالية، هي التي تفسر التراكم الرأسمالي، أي تفسير جزء فائض القيمة من المنتج الإجمالي، وذلك بخلق أسواق خارجية، خارج نطاق النمط الرأسمالي ذاته، لأنه – بحسب لوكسمبورغ - لا الرأسمالين يستطيعون تحقيق هذا الفائض عن طريق إستهلاكهم المباشر ولا العمال يستطيعون ذلك لأن أجورهم تستنفذ في تحقيق الرأسمال المتغير، فلا يبقى إلا مستهلكين من خارج النظام الرأسمالي. أما المبحث الثالث فظهر تحت عنوان: نظرية الإمبريالية لروزا لوكسمبورغ ومقارنتها بنظرية الإمبريالية للينين،

وهو يمثل مسعى لاجراء مقارنة بين المحاولة اللينينية والمحاولة اللوكسمبورغية لتفسير الظاهرة الامبريالية. وبيّن العرض المقدم في هذا المبحث، استنادا الى مساهمات مختلفة وفي مقدمتها المساهمة الثرية للاقتصادي الفرنسي المرموق كريستيان بالوا، بأن أسس المسار النظري تتماثل بين لينين وروزا لوكسمبورغ، ولكن هذا التماثل لا يكون، في الحقيقة الا على مستوى المسألة المطروحة، وليس على مستوى القاعدة النظرية التي ينطلق كل منهما في بحث مسألة الإمبريالية. ففي حين عالج لينين، عند مناقشته للشعبيين والماركسيين الشرعيين، مسألة تحقيق الناتج الاجتماعي، إنطلاقاً من عملية الإنتاج ذاتها (الكتاب الأول)، وذلك لتحقيق الترابط النظري لمسألة السوق الخارجية، تنطلق روزا لوكسمبورغ عند بحث المسألة من " عملية التداول"، وهي " تعترف" بوضوح كامل بإسلوب طرحها للمسألة. أما المبحث الرابع الموسوم: " تراكم رأس المال" - مكونات العمل في الجزء الأول - فيتناول أبرز القضايا والاشكاليات التي تناولها الجزء الأول من عمل روزا لوكسمبورغ الأهم.

ولا بد من الإشارة هنا الى أن "تراكم رأس المال" ينقسم الى ثلاثة أجزاء و 32 فصلاً (الجزء الأول يضم تسعة فصول، في حين يضم الجزء الثاني 15 فصلاً، أما الجزء الثالث فيضم ثمانية فصول).

ومن جهة اخرى فإن الحلقة الرابعة تركز على: قضية التراكم في إطار تاريخي (بعض اشكاليات الجزء الثاني من " تراكم رأس المال")، يتم هنا استعراض إشكاليات الجزء الثاني من كتاب "تراكم رأس المال". في هذه الحلقة ثمة محاولة لاستعراض ما بذلته روزا لوكسمبورغ من جهد متميز لإبراز اتجاهات السجال حول مشكلة التراكم، وحول إمكانية تحقيق فائض القيمة، التي اعاد طرحها، بعد ماركس، ألمع المنظرين في فرنسا وإنكلترا والمانيا وروسيا. ومن وجهة النظر التاريخية، تحدد المؤلفة ثلاث محطات من السجال الساخن أو ما تسميه بـ " التصادم بالسلاح"، حول هذه القضايا:

1. السجال الأول حدث في عشرينيات القرن التاسع عشر بين سيسموندني ومالتوس وساي، وبين ريكاردو وماكولوخين.
2. أما الثاني فقد حدث في خمسينات القرن التاسع عشر بين رودبيرتوس وكيرشمان.
3. في حين إندلج السجال الثالث بين "الشعبيين" الروس، فورنتسوف ونيقولاوي - أون (دانيلسون) وبين الماركسيين " الشرعيين" من طراز ستروفا، بولهاكوف وتوغان - بارانوفسكي.

أما الحلقة الخامسة فتظهر تحت عنوان: الشروط التاريخية للتراكم/ سجال مع مخططات اعادة الانتاج الماركسية.

هنا تنطلق روزا لوكسمبورغ من فرضية قوامها ان مخططات ماركس ليس في وضع يمكنها من تفسير عملية التراكم، التي تحصل في الواقع وتشق لنفسها الطريق التاريخي، ولهذا السبب يتم عرض محاولتها لايجاد حل نظري لمشكلة تحقيق فائض القيمة. فمن المعلوم ان روزا لوكسمبورغ صاغت في القسم الثاني من " التراكم" موضوعاً تقول بأن قضية التراكم، وإمكانيات تحقيق فائض القيمة، لم يتم حلها من طرف ماركس، ولا من طرف من جاء بعده - أي الماركسيين الروس في سجلاتهم مع " الشعبيين". وقد ظلت هذه القضية تنتظر من يقوم بحلها. ولهذا السبب، راودت روزا لوكسمبورغ فكرة ملخصها أن تقدم، في هذا الجزء الثالث والموسوم "الشروط التاريخية للتراكم"، حلاً نظرياً لمشكلة تحقيق فائض القيمة. لهذا نراها في هذا الجزء تحاول، جاهدة، صياغة وتعليل المفاهيم النظرية، مستخلصة منها الإستنتاجات المطلوبة، بصدد قضية التطور اللاحق للرأسمالية وإنهيارها.

في هذا الحلقة نحاول ان نعرض سجلاتها مع مخططات اعادة الانتاج التي صاغها كارل ماركس، منطلقاً، لاسباب بحثية، من تخليها عن الفرضية الماركسية الكلاسيكية " الرأسمالية الصافية"، ساعية لعرض حلها الخاص لهذه المشكلة النظرية بادخالها " الوسط غير الرأسمالي" كشرط ضروري لتراكم رأس المال. حاولت روزا لوكسمبورغ، هنا، ان تبرهن على ان المشترين غير الرأسماليين يحلون هنا المشكلة الرئيسية وهي تحقيق الجزء المتراكم من فائض القيمة، وكذلك قضية إيجاد عناصر مادية ملائمة لرأس مال جديد. ومن الطبيعي فإن الأجزاء المتبقية من المنتج الإجمالي لا يجب أن تتخذ مباشرة

صيغة طبيعية ملائمة، بل يمكن الحصول عليها عن طريق التبادل. بهذه الطريقة من البناء النظري المصاغ من طرفها يمكن الإستنتاج بعدم تبعية إعادة وتوسيع رأس المال الى الأشكال الطبيعية للمنتوج الإجمالي للمجتمع الرأسمالي. وبحسب لوكسمبورغ يحل " الوسط غير الرأسمالي " قضايا أخرى كذلك، لم يكن بالإمكان أن تحل في إطار المخططات الماركسية الكلاسيكية لإعادة الإنتاج الموسع.

اما الحلقة السادسة فتتوقف عن: نقد نقادنا أو " تراكم رأس المال " - النقد المضاد. فكما معروف، واجه صدور " تراكم رأس المال "، بسبب ما احتواه من قضايا مثيرة للجدل، عاصفة من الانتقادات معظمها كان ذا طبيعة ايديولوجية صرفة، الأمر الذي دفع روزا لوكسمبورغ الى " امتشاق سلاح النقد " للدفاع عن الاستنتاجات والخلاصات النظرية التي توصلت إليها في عملها الاله " تراكم رأس المال ". عندها ظهر " النقد المضاد " الذي يعد محاولة أخرى، من طرفها، للرد على هذه الهجمات. هنا، إذن، حدث، مرة أخرى، صدام بسلاح النقد (الصدام الرابع) بشأن قضية التراكم. حاولنا في هذه الحلقة ان نبين بأن " النقد المضاد " يمثل، إضافة لـ " تراكم رأس المال "، وهو، في مضمونه الأساسي، عبارة عن تعليق على ما طرح من ملاحظات انتقادية وهجمات على " التراكم ". وبهدف مواجهة الهجمات المضادة، تبدأ روزا لوكسمبورغ " النقد المضاد " بعرض دقيق وبطريقة تفصيلية للنموذج النظري الذي كان أساس النظرية التي تم تطويرها في " التراكم ". وظلت تراودها أيضا، في هذا العمل، الإجابة على السؤال المتعلق بمستهلكي ذلك الجزء من فائض القيمة المخصص للتراكم، وكذلك العديد من القضايا الأخرى، من قبيل: قضية النقود والدور الفعلي للمشتريين (المستهلكين) غير الرأسماليين. ومن المفيد التذكير هنا بأن لوكسمبورغ، وفي إطار مساجلاتها العديدة وردوها بصد اتهامات محددة، استطاعت أن تعدل وتدقق وتطور تناولها للعديد من القضايا، وهو ما سعيانا لابرازه في هذه الحلقة.

أما الحلقة السابعة والاخيرة والموسومة: تطور اتجاهات السجل بشأن العمل الأهم لروزا لوكسمبورغ: " تراكم رأس المال "، فهي تمثل محاولة لتتبع المسار التاريخي لاتجاهات السجل حول هذا الكتاب. تحتوي هذه الحلقة على اربعة مباحث. يستعرض المبحث الاول نقد " تراكم رأس المال " من طرف منظري الاشتراكية الديمقراطية قبل الحرب العالمية الأولى، حيث جاءت أول موجة من الانتقادات من مواقع وسط ويمين الاشتراكية الديمقراطية. والاستنتاج الذي يتوصل إليه المرء، بعد عرض هذه السجلات، هو أن النقد القاسي الذي تعرض له هذا العمل كان بالاساس منطلقا من اعتبارات سياسية (صراع المعسكرات) وليس من اعتبارات منهجية/علمية. فعلى سبيل المثال لا الحصر لم يكن نقد (برنشتاين)، و (باور)، و (كاوتسكي) وآخرين نقداً محايداً وموضوعياً بل كان نقداً هدفه الأساسي إقصاء " روزا الحمراء الخطرة " كمنظرة، وتدمير مكانتها وهيبتها السياسية والفكرية بإيصالها الى الحضيض، كقائدة للجناح اليساري في الاشتراكية الديمقراطية آنذاك.

أما المبحث الثاني فيكرس لمتابعة تقييم " التراكم " من طرف الماركسيين في سنوات العشرينات من القرن العشرين، وخصوصا من طرف كل من (لينين) و (بوخارين)، وبيان ابرز التقاطعات في وجهات النظر بشأن الامبريالية وموضوع " الوسط غير الراسمالي " المثيرة للجدل. في حين كُرس المبحث الثالث لمتابعة اتجاهات النقد الذي تعرض له " التراكم " منذ سنوات الثلاثينات حتى النصف الأول من خمسينات القرن العشرين. لا بد من الإشارة، في البداية، الى أن طابع النقد في السنوات المذكورة أعلاه قد حددته، وبدرجة كبيرة، رسالة (جوزيف ستالين) الى هيئة تحرير مجلة " الثورة البروليتارية ". ويبدو أن النقد الستاليني لموقف روزا لوكسمبورغ في القضايا السياسية والنظرية (ولكن ليس في قضية التراكم وإمكانية أو عدم إمكانية الرأسمالية الصافية، فهذه القضية لم يثرها ستالين) كان ذا طابع شمولي totally. لقد قُدمت لوكسمبورغ هنا وكأنها " نصف منشفية، مؤلفة الكاريكاتورا الماركسية لنظرية الثورة، منشفية في القضايا التنظيمية " وما شابه ذلك من النعوت، الأمر الذي يتيح الاستنتاج بأن محتوى النقد، في هذه المرحلة، كان خاضعا لاشتراطات الرؤية الستالينية التي لم تكن بالضرورة ذات طبيعة علمية. وللتدليل على ذلك حسبنا ان نذكر بأن العديد من المنظرين " المحترفين " الذي ناقشوا اطروحات روزا لوكسمبورغ، خلال تلك الفترة، اعتبروا النقد الستاليني بمثابة مرشد لهم!. في حين خصص المبحث

الرابع لعرض التقويمات المعاصرة للـ " التراكم ". يمكن القول ان الاتجاه العام للتقويمات في هذه المرحلة يتمثل في " رد الاعتبار " لروزا لوكسمبورغ باعتبارها ثورية كبيرة ومنظرة ماركسية مرموقة. ومن خلال متابعة لاتجاهات السجال، خلال هذه الفترة، لاحظنا ان العديد من الكتاب، من المنظرين والمحررين، والساسة والنشطاء في الحركة العمالية، قد عرضوا نجاحاتها وإخفاقاتها بشكل موضوعي. وبغض النظر عن الأخطاء النظرية التي ارتكبتها، بشأن هذه القضية أو تلك، فإنها تُقدم في الظروف المعاصرة كواحدة من أهم الوجوه من بين المنظرين والممارسين الماركسيين في ذلك الوقت. ويمكن الإشارة الى العديد من الأعمال الهامة التي نُشرت في " البلدان الاشتراكية " في حينه عن روزا لوكسمبورغ، كما يمكن الإشارة الى أنه قد كُتب الكثير عنها في البلدان الاوربية الغربية.

يتضمن هذا العمل أيضاً خاتمة حاولت فيها بلورة بعض الاستنتاجات والملاحظات الختامية حول " تراكم رأس المال "، العمل الاهم لروزا لوكسمبورغ. ولاشك أنه يتوجب تقييم كل عمل علمي إستنادا الى وإنطلاقا من خلفية الظروف التاريخية الملموسة التي كُتب فيها. ويتعلق الأمر على وجه الخصوص بأعمال من حقل العلوم الإجتماعية/التاريخية. لم تكن قضية توصيف المرحلة التي كانت تمر بها الرأسمالية حينذاك اشكالية نظرية صرفة فقط، بل إن التوصيف الصحيح كان سيساعد على تحديد نوع الإستراتيجية السياسية الملائمة لتلك المرحلة. ومن جهة أخرى فإن " تراكم رأس المال " كُتب في تلك اللحظة التاريخية التي أنهت فيها أوروبا وأمريكا الشمالية تطوراً رأسمالياً سلمياً طويلاً المدى نسبياً. فقد انتهى ذلك التطور وحلت نُذُرُ عاصفة حرب عالمية ضروس.

يمكن القول إن البناء النظري الذي صاغته روزا لوكسمبورغ، في عملها الإقتصادي الأهم، كان يحمل بذاته الطريق لتعميق نظرية الإمبريالية، بغض النظر عما تضمنه العمل للعديد من الإشكاليات المثيرة للنقد والجدل والاختلاف. لقد أدخلت لوكسمبورغ " الوسط غير الرأسمالي " الى تحليل عملية تطور الرأسمالية في لحظة تاريخية ملموسة كانت تمر بها هذه التشكيلة حينذاك. وكان هذا يمثل خطوة هامة باتجاه ملموسية تجسيد **Concretization** نظرية ماركس. وبغض النظر عما إذا كانت محاولتها الاجمالية هذه قد نجحت أم لا، فإنها دفعت بالفكر الماركسي نحو نرى جديدة، نحو قضايا لم تكن مبحوثة من قبل. وهذا هو ما يمثل جوهر وأهمية مساهمتها الفكرية، وما تضمنته تحاليلها وصياغاتها النظرية في عملها الأهم " تراكم رأس المال ". ومن هنا اشارتنا، في الخاتمة، الى أن العمل الذي أنجزته روزا لوكسمبورغ يعد مساهمة نظرية وسياسية تعبوية مهمة أغنت الفكر الماركسي، والممارسة كذلك، وأضافت اليهما عناصر جديدة. وقد طرحت تحليلاتها ونتائج أبحاثها أسئلة جديدة وإشكاليات جديدة، فُتحت الباب أمام معارك نظرية وسجلات ساخنة لم ينتهي أوارها لحد الآن وسيبقى كذلك لأمد طويلة. وهذه هي قيمة العمل العلمي الرصين الذي لا يتحدد هدفه بالإجابة على أسئلة سابقة، بل وبطرح أسئلة جديدة تشكل منطلقا لبحاث ومقاربات لاحقة. ويمكن القول، بلا تردد، أن عمل لوكسمبورغ يدخل ضمن هذا الإطار بالفعل.

مرجعيات الخطاب الاقتصادي للوكسمبورغي

في الخامس من آذار عام 1871 ولدت روزا لوكسمبورغ في مدينة زاموشج Zamość البولندية بإعتبارها الطفلة الأخيرة لعائلة تتألف من ستة أطفال (ثلاثة أولاد وثلاث بنات). وفي الساعة التاسعة من مساء يوم 1919/01/15 قامت مجموعة من الجنود الألمان بمداهمة المنزل الذي كانت تقيم فيه واعتقلتها سوية مع كارل ليبنخت **Karl Liebknecht**، وبعد عدة ساعات من لحظة الإعتقال هذه تم اغتيالها غيلة إذ وجدت جثتها مرمية على مقربة من جسر على قناة مياه المدينة. وبين لحظة الولادة ولحظة الموت فاصل زمني قصير بلغة الزمن، ولكنه برغم ذلك كان فاصلاً حافلاً بالعطاء الكبير الذي قدمته هذه المناضلة الجسورة، أو كما سماها لينين بحق " نسر الثورة ". ونظراً لأن هذا العمل غير معني بكتابة تاريخ حياة هذه المناضلة قدر انشغاله بخطابها الإقتصادي، لذلك سيكون من المفيد إعطاء لمحة تاريخية مكثفة عن حياتها القصيرة والثرية في أن، مع التركيز على أهم المحطات المهمة فيها.

تُعد روزا لوكسمبورغ شخصية بارزة في الحركة العمالية العالمية عند تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين. وهي من زعماء الجناح اليساري في الأممية الثانية، ومن مؤسسي الحركة الاشتراكية – الديمقراطية البولندية. وابتداءً من 1897، اشتركت بنشاط في الحركة الاشتراكية – الديمقراطية الألمانية. ومنذ لحظة اندلاع الحرب الامبريالية الأولى (1914-1918) وقفت موقفاً أممياً. كانت من المبادرين الى تأسيس فرقة " الاممية " التي أسّمت فيما بعد فرقة " سبارتاك " ثم " اتحاد سبارتاك ". بعد ثورة تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1918 في ألمانيا، أسهمت بدور قيادي في المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الألماني. ورغم أنها كانت ذات ذهنية متقدمة، أصيلة وعميقة، غير أن مكانتها في الفكر الاشتراكي ظلّت، لأسباب مختلفة، موضع خلاف وسجلات ساخنة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، وعلى صعيد تاريخ الحركة العمالية البولندية مثلاً، اعتبرت لوكسمبورغ ولفترة طويلة بمثابة خصم عنيد لفكرة إعادة بناء استقلال بولندا وكذلك خصماً للحزب الاشتراكي البولندي. وقد أثر هذا الموقف على علاقتها بالحركة الإشتراكية البولندية.

وكمناضلة في صفوف الحركة العمالية العالمية والألمانية قامت روزا لوكسمبورغ بنقد حاد للإصلاحية **Reformism** ونظريتها الصاعدة آنذاك " التحريفية ". كما كافحت بعد ذلك " الاتجاه الوسطي " في الإشتراكية الديمقراطية، الذي كان كارل كاوتسكي منظره الأهم، حينذاك. فليس غريباً، إذن، إن تُبرز الإشتراكية الديمقراطية السابقة والمعاصرة فقط تلك الأطروحات التي طرحتها روزا لوكسمبورغ والتي تختلف فيها مع لينين وتنتقد فيها البلاشفة.

ومن المفيد الإشارة الى أن النقد الحاد الذي قامت به لوكسمبورغ لبعض العناصر المهمة في إستراتيج **وتكتيك البلاشفة**، وبغض النظر عن مشروعيتها أو عدم مشروعيتها آنذاك، قد أدى الى إقصائها وعدم إدخالها الى قوام ممن تسلط عليهم أضواء الشهرة، بالرغم من الخدمات الثورية الجليلية التي قدمتها للحركة العمالية والاشتراكية. ومبكراً وخلال النصف الأول من عشرينات القرن العشرين، تعرّض فكرها النظري وتراثها السياسي الى هجوم قوي من طرف **الحزب الشيوعي الألماني**، حيث ما يزال ماثلاً في الأذهان العمل الذي كتبه روث فيشر **Ruth Fisher** الذي اعتبر اللوكسمبورغية **Lukseburzm** بمثابة " السفيلس " في الحركة العمالية!

ومن جهة ثانية فإنه وحتى منتصف الخمسينات من القرن العشرين كان الخطاب الحزبي الرسمي في العديد من بلدان " الإشتراكية الفعلية "، ولأسباب عديدة، يروج لأطروحة قوامها أن لوكسمبورغ صاغت " نسقاً خاطئاً من الأفكار غير ماركسي وغير لينيني، إنه اللوكسمبرغية "، والذي تسبب، بحسب هذه المقاربة، في كارثة للحركة الثورية في ألمانيا و بولندا، وارتبط بالتروتسكية المعادية للثورة!.

بعد موت ستالين جرى، في كل الاتحاد السوفياتي وألمانيا الديمقراطية وبولندا، التخلي عن التقييمات المتطرفة للتراث الفكري لهذه المناضلة، وأعيد الاعتبار الى المساهمات التي قدمتها روزا لوكسمبورغ،

وخصوصاً مساهماتها في الصراع ضد " التحريفية، والقومانية والإمبريالية ". غير أنه بمقابل ذلك جرى التأكيد، آنذاك، على أن فكرها النظري والسياسي لم يساهم في إثراء التراث النظري للفكر الرسمي السائد في حينه. ولكن ذلك لا يعني، بأية حال، أنه لم يكن، في تلك الفترة، من اهتم بالفكر السياسي والنظري لـ " الوردية الحمراء ". ومن سوء الطالع أن ناشري ومروجي التراث النظري والسياسي لروزا لوكسمبورغ، كانوا حتى السنوات التي سبقت انهيار المعسكر الاشتراكي وتفكك الاتحاد السوفياتي السابق، هم تلك المجموعات السياسية التي يمكن تصنيفها على أنها تنتمي الى أوساط الحركة الاشتراكية وبعض الحركات الشيوعية، من تلك التي كانت ترفض ما يسمى بالإصلاحية Reformism من جهة و " النموذج السوفياتي " للاشتراكية من جهة أخرى، أي تلك التي كانت تبحث عن " طريق ثالث " .

وابتداء من نهاية الخمسينات وبداية الستينات من القرن العشرين أصبحت أفكار روزا لوكسمبورغ موضوعاً للاهتمام الإيجابي في بعض " بلدان المعسكر الاشتراكي " .

أما في الغرب، وفي اليابان كذلك، فغالباً ما لجأ نقاد " النموذج السوفياتي " للاشتراكية الى النتائج النظرية لروزا لوكسمبورغ لكشف عيوب وثغرات هذا النموذج. كما كانت أفكارها تحظى، بين الحين والآخر، باهتمام كبير من طرف بعض المجموعات الراديكالية. فعلى سبيل المثال اكتشفت الحركات الطلابية والشبابية في أوروبا الغربية أفكار هذه المناضلة الثورية، وذلك في عام 1968 الذي شهد انتفاضة طلابية واسعة انطلقت في فرنسا وطالت العديد من تلك البلدان. كما استند الى فكرها أيضاً بعض المجموعات اليسارية الراديكالية التي لجأت الى العمل المسلح ضد المجتمع الرأسمالي وكذلك ضد " الأحزاب الشيوعية غير الثورية "، كما كانت تعتقد تلك المجموعات في حينه.

ومن المفيد الإشارة الى أن كلاً من الاتجاهات المذكورة أعلاه تميز ببنية محددة للتفكير النظري والسياسي مطابقة له وخاصة به. غير أنه يمكن العثور، في كل واحدة من البنى المذكورة، على العديد من القضايا والأفكار التي طرحتها روزا لوكسمبورغ. ولهذا يلاحظ وجود فروقات حادة، عندما يتعلق الأمر بتقييم شخصيتها، وتراثها وفكرها النظري والسياسي. وعلى سبيل المثال فقد برزت تلك الخلافات والتعارضات، بشكل صارخ، في المؤتمر العلمي الدولي الذي انعقد في مدينة Reggio Emilia في إيطاليا عام 1973 والذي كُرس للتعرف على إسهام روزا لوكسمبورغ في تطوير الفكر الماركسي. وكان الخلاف الذي اندلع في هذا المؤتمر يدور، في جوهره، حول قضايا أساسية في الحركة العمالية، حول الطريق والهدف الاشتراكي لهذه الحركة.

تنتمي روزا لوكسمبورغ الى مجموعة/قائمة مؤسسي الفكر الإقتصادي العالمي بإعتبارها مؤلفة كتاب " تراكم رأس المال " ، الذي عرضت فيه نظريتها بصدده تطور وانهيار الإقتصاد الرأسمالي¹. وكما هو معروف فقد أثارت أعمالها العديدة، وفي مقدمتها مؤلفها المشار اليه اعلاه، ومنذ لحظة صدوره، زوبعة من المساجلات والنقد، وهو ما سيتم تناوله في مكان آخر من الدراسة. وباختصار شديد، يمكن التأكيد على أنه بالإضافة الى المواقف النظرية لنقاد ومفكري أعمال روزا لوكسمبورغ، تأثر تقييم نتائجها النظرية الثري بالمواقف السياسية لهؤلاء. لا يأتي المرء بجديد حين يؤكد على أن كتابات المفكرين الماركسيين الكبار مثل ماركس ولينين وروزا لوكسمبورغ وآخرين غيرهم قد قرئت بشكل سيئ، بل أنه تم إصدار الأحكام على العديد من أعمال هؤلاء المفكرين حتى قبل قرائتها! وإذا لم يبصر المرء النفس بهذه الحقيقة فلن يستطيع فهم جوهر الخلاف حول الإسهام النظري لهذه المفكرة الكبيرة، وخصوصاً عملها الأهم " تراكم رأس المال " ، هذا الخلاف الذي بدأ منذ عشرينات القرن الماضي ولم يصل الى نتيجة نهائية لحد الآن، ولا جرى هذا الخلاف وانبثاق تصورات جديدة حول منجزها النظري.

1 يؤكد أحد أهم العارفين والمتخصصين بالفكر النظري لروزا لوكسمبورغ، وهو الباحث البولندي المعروف بوزيف زافاسكي، بأن روزا لوكسمبورغ تعد مكملة ومرزجة للعلم الماركسي. وباعتقاده فإن كتابها " تراكم رأس المال " كان عملاً ماركسياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، أي أنها لم تنتج نظرية لا ماركسية، والتي سماها خصوصاً بـ " اللوكسبرغية " . لمزيد من التفاصيل قارن : بوزيف زافاسكي، الأفكار الإقتصادية لروزا لوكسمبورغ، الكتاب والمعرفة، وارشو 1982 (باللغة البولندية).

الخطاب اللوكسمبرغي - أطروحته المركزية ومفاهيمه الكبرى

لا بد من الاعتراف بأنه تواجهنا مهمة صعبة وهي كيف يمكننا أن نجد وراء هذا التنوع والشراء في التحليل والاتساع في معالجة المشكلات التي تناولتها روزا لوكسمبورغ، الأطروحة المركزية التي تسمح لنا بالاستنتاج بأن التحليل اللوكسمبورغي ارتقى من مستوى المعارك السياسية المباشرة الى مستوى الموقف النظري المتكامل، الذي يعبر في حد ذاته عن اكتمال العمارة النظرية، التي اجتهدت روزا في بنائها حجراً حجراً وهي تساجل وتصارع ضمن المعسكر الواحد - الماركسي- أو مع المعسكرات الأخرى، في عصرها القصير والصاخب والمليء بالمعارك، وما أكثرها.

إن الأفق البحثي المعتمد في هذه الدراسة تجاه التراث الضخم لمؤلفة "تراكم رأس المال" (وسنشير له فيما بعد التراكم) والذي يبلغ حوالي (7000) عمل بين كتاب ودراسة ومقالة وبحث، يلزمنا بالضرورة أن نستخلص من هذا التراث تلك المضامين التي تتناسب والمهمة التي وضعناها على عاتقنا في البداية.

إن تصنيف ما أنتجته روزا لوكسمبورغ، بحسب معيار الأهمية، مع الأخذ بالاعتبار جميع وجهات نظرها، بشكل، ولاشك، مهمة صعبة. وبرغم ذلك فإن التأمل بكتاباتها يتيح الاستنتاج بأن اهتماماتها كانت تتركز في أربع مجموعات كبرى من القضايا هي:

1. الإشكالية الاقتصادية الحاضرة تقريباً في كل مقالاتها ودراساتها، والتي تمثل، كما يبدو، الدافع أو المحفز الرئيسي للنشر (وربما يرتبط الأمر بدراستها أصلاً، فهي حاملة شهادة دكتوراه في الاقتصاد)؛
2. القضية الوطنية؛
3. مشكلة ما يسمى بـ "التحريفية" Revisionism و "الإصلاحية" Reformism
4. قضية استراتيج وتكتيك الحركة العمالية.

وانطلاقاً من المخطط المعتمد للبحث هنا فإنه سيتم تجاوز القضايا الثلاثة الأخيرة في هذه الدراسة، ليس بسبب عدم أهميتها، فهي مهمة وجديّة حقاً، ولكن لأن كل واحدة منها تحتاج الى معالجة خاصة تتجاوز أطر هذا العمل. أما القضية الاولى (الإشكالية الاقتصادية) فهي التي سيتم التركيز عليها طيلة الحلقات التي يتضمنها هذا العمل.

المرجعيات الإجتماعية والنظرية للإشكالية التاريخية/الفلسفية

بداية، لا بد من التأكيد، على أن للفلسفة الإجتماعية عند روزا لوكسمبورغ مصدران مختلفان. يتمثل الأول في أن تلك الفلسفة كانت ناجمة عن الحاجات الملحة، حينذاك، كما فهمتها هي، حاجات الحركة العمالية بوجه عام، والبولندية والألمانية على وجه الخصوص. أما الثاني فيتمثل في أنها كانت مشروطة (محددة) بالتراث النظري للماركسية، والتي وجدت فيه المتطلبات المنهجية لبحث الظواهر الإجتماعية.

من الناحية التاريخية، واجهت الحركة العمالية، عشية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، معضلة يمكن صياغتها على هيئة سؤال: أي مذهب Doctrine لماركس، معتل من الناحية النظرية، يمكن تطبيقه في الواقع؟ أو بعبارة أخرى: كيف يمكن موائمة فكرة الاشتراكية مع النشاط اليومي للناس، أو باستخدام التعبير اللوكسمبورغي: كيف يمكن تحقيق التوافق أو الموائمة بين الهدف النهائي والأهداف المرحلية العملية؟. وكما معروف فإن هذه الإشكالية طرحت بحذر، وذلك بعد نشر (أدوارد برنشتاين) لسلسلة من المقالات تحت عنوان: قضايا الاشتراكية. وكان برنشتاين في الواقع تحت تأثير

الإقتصادية **Economizm** والنجاحات الانتخابية لـ **SPD**، قد صاغ طائفة من الاستنتاجات يمكن الإشارة إلى أهمها باختصار² :

- إن أفكار ماركس، بجانب ثرائها العلمي، تحتوي على عناصر البلاكنية (نظرية الكوارث الإجتماعية) واليوتوبيا (الطوباوية).
- إن الوتيرة السريعة للتحويلات الرأسمالية المعاصرة جعلت من الماركسية، كتأويل محدد لعموم هذه التشكيلة، غير ملائمة.
- إن التغييرات التي حدثت والتطور العاصف للحركة العمالية (وخصوصاً في ألمانيا)، تسمح بالافتراض بأنه يمكن الانتقال سلمياً من الرأسمالية إلى الإشتراكية. وبعبارة أخرى، وطبقاً لفهم برنشتاين، فإن الثورة لا تصبح الوسيلة (الأداة) الضرورية المؤدية إلى " الهدف النهائي " .
- إن الوضع الجديد للرأسمالية، المختلف عما تصورته الماركسية، يتمثل في النزوع نحو اختفاء التناقضات في تطور البرلمانية وإلى الديمقراطية.
- وبسبب قدرات الرأسمالية على التكيف فإن الأوضاع الأزمومية، بالمعنى الإقتصادي والاجتماعي، أصبحت أقل احتمالاً ولذلك تفقد الدولة الرأسمالية طابعها الطبقي، ويتعرض في نفس الوقت صراع الطبقات للتطيف.

واستناداً إلى الأطروحات السابقة توصل برنشتاين إلى استنتاج مفاده أنه يتوجب على الحزب الإشتراكي الديمقراطي أن يتخلّ، في برنامجه، عن مطلب الثورة، وأن يركّز كل طاقته على الكفاح طويل المدى من أجل التدعيم الإقتصادي والسياسي للبروليتاريا عن طريق المساهمة الواسعة في الانتخابات البرلمانية، ومن خلال النشاطات والفعاليات الجماهيرية لصالح ديمقراطية الحياة - وصولاً إلى المساواة التامة للبروليتاريا. وبدوره أدى موقف برنشتاين إلى تبلور تيارين متعارضين في الأحزاب العمالية المنظرية تحت راية الأممية الثانية آنذاك. ويبدو أن الأفكار التي طرحها برنشتاين، وما قام به أنصاره في حينه من نشاطات، قد شكلت بالنسبة لروزا لوكسمبورغ معلماً أساسياً لتحديد علاقتها بنظرية ماركس، وتقييم الوضع السائد، في حينه، للرأسمالية واتجاهاتها التطورية، واستخلاص الاستنتاجات المطلوبة بهدف صياغة المهام العملية والملحة للحركة العمالية في حينه. ويبدو أن هذا الهم يبرز، بوضوح، في عموم كتابات مؤلفة " تراكم رأس المال " . وفي الفقرات التالية سننشد فقط بالسياق النظري لهذه الإشكالية.

علاقة روزا لوكسمبورغ بالماركسية

لا يعني تبني الماركسية ، بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، التعامل الدوغمائي مع منطلقاتها النظرية والمنهجية، بل على العكس من ذلك، نراها تنطلق من موقف مستقل تجاه ماركس يقوم على أساس الاحترام لنتاجه الفكري والعلاقة النقدية بمجموع الجهد الثري لمؤلف الرأسمال. وفي هذا الصدد تكتب روزا لوكسمبورغ قائلة: " إن مذهب ماركس وأعماله كلها ليست إنجيلاً يقدم دائماً حقائق جاهزة ومشروعة إلى نهاية المطاف، بل إنه يمثل معيناً لا ينضب للعمل الفكري اللاحق والصراع من أجل الحقيقة " ³.

² لمزيد من التفاصيل قارن : إدوارد برنشتاين، مبادئ الإشتراكية. قضايا الإشتراكية الديمقراطية. نفوف 1901 (باللغة البولندية)
³ أنظر : " الرأسمال " كارل ماركس - تلخيص ف. ميهرنغ و روزا لوكسمبورغ، وارشو 1923، ص 15، 24 (باللغة البولندية)، وقد ورد النص عند تاديوش كوفاليك، " الرأسمال " كارل ماركس في الفكر الاجتماعي - الإقتصادي البولندي (في): حول النظريات الاقتصادية لـ " الرأسمال " وارشو 1967، ص 44، 45 (باللغة البولندية).

واستنادا الى ذلك ينطرح سؤال: ما هو فهم روزا لوكسمبورغ لمصطلح الماركسية؟
الجواب هو أن الماركسية بالنسبة لها، مثلما هي بالنسبة لماركس، تعني أولاً وقبل كل شيء فلسفة هيغل، والمنهج الجدلي المستخدم لبحث التشكيلية الرأسمالية وصياغة التنبؤات المتعلقة بمصائرها.
وفي التأملات الفلسفية لروزا لوكسمبورغ، يتخذ الديالكتيك معنى مزدوج: أنطولوجي وأبيستيمولوجي.

فالسباق الأنطولوجي للديالكتيك معتمد في تأملاتها a priori لا يحتل مركز الصدارة، بل يوجد في المضامين العميقة لتأملاتها الفكرية. ومن هنا الإجابات المعروفة على سبيل المثال من قبيل: ليس هناك من ظواهر دائمة، ثابتة (غير متغيرة)، أحكام أو دوغماتيات⁴. إنها ترفض ظهور عالم سناتيكي، غير ديناميكي، كما ترفض كذلك الأحكام المنغلقة، أي تلك التي تقدم حقيقة مطلقة، ناجزة.
أما الإشكالية الأنطولوجية بالمعنى الدقيق strico والمحصورة بالواقع الاجتماعي، فإنها تظهر ظرفية (عابرة) في أعمال روزا لوكسمبورغ، ربما لأن تلك الإشكالية قد بدت لها غير ذات أهمية. غير أن السياق المنهجي للديالكتيك هو الذي يتمتع بأهمية استثنائية بالنسبة لها. وبحسب الكاتبة، فإن القيمة الجوهرية للماركسية تعتمد (... ليس على هذه أو تلك من التصورات بصدد القضايا الراهنة، بل على مبدئين أساسيين: المنهج المادي الجدلي لدراسة التاريخ، والذي تحتل نظرية صراع الطبقات واحدة من استنتاجاته الأساسية، وكذلك تحليل تطور الإقتصاد الرأسمالي المعطل من طرف ماركس)⁵.

تعود القيمة المنهجية للماركسية، بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، الى معلمين اثنين: التناول الجدلي للظواهر والسيرورات، والإقرار بأن العوامل الاقتصادية تعتبر العوامل الأساسية في التطور الاجتماعي. المتطلب المنهجي الأول تفسره روزا لوكسمبورغ بروح متطلب التناول السيروراتي للظواهر الاجتماعية. أما المتطلب الثاني فهو ذو طبيعة تفسيرية، أي ضرورة تفسير السيرورات الاجتماعية أساساً، ولكن ليس فقط، انطلاقاً من الظواهر ذات الطبيعة الاقتصادية. وقيمة الجدل (الديالكتيك) لا تُحدد فقط بالدور الأدواتي Instrumental في بحث الحياة الاجتماعية، بل في إنه يمثل، بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، الضمانة الفعلية للقيمة العلمية للماركسية، إضافة لكونه الضمانة العلمية للإجراءات Procedure البحثية بشكل عام. تبدو علاقة لوكسمبورغ بالجدل، كمنهج، كما لو أنها تتفق مع الموضوعة القائلة بأن الجدل، بالمعنى التاريخي، هو القيمة الوحيدة الشاملة Universal بالنسبة للماركسية⁶.

وإذا تجاوزنا الفروقات العرضية أو الطارئة فإن علاقة لوكسمبورغ بالماركسية تبتعد عن العديد من الماركسيين⁷. على سبيل المثال يؤكد (أنتوني لابيرولا) على أن الماركسية "ليست صورة ذهنية لمخطط ضخم... بل هي قبل كل شيء منهج بحث وتفسير"⁸. وفي دراسة خاصة مكرسة لأهمية الماركسية يشير نفس الكاتب قائلاً: "يجب بحث أهمية هذا المذهب في الموقف الذي يحتله تجاه النظريات الأخرى والصراع مع تلك النظريات... إن هذا المذهب... يكشف فقط التنسيق والتطابق الموضوعي لمختلف المصالح في تطور عموم المجتمع"⁹. وهناك رأي مماثل عبر عنه الفيلسوف المجري المعروف جورج لوكاش الذي اعتبر أن تبني الماركسية يعني تبني منهجها، وأن تطوير الماركسية يعني تطوير منهجها¹⁰.

⁴ انظر: روزا لوكسمبورغ، القضية البولندية في الحركة الاشتراكية، كراكوف 1905، ص xv، والاقتباس مأخوذ عن أس. جامسكي S.Dziamski: مقدمة للفكر الفلسفي الماركسي البولندي 1878 - 1939، وارشو 1973 (باللغة البولندية).

⁵ المصدر السابق.

⁶ انظر: روزا لوكسمبورغ، كارل ماركس - كتابات مختارة، الجزء الأول، وارشو 1959، ص 304 (باللغة البولندية).

⁷ لمزيد من التفاصيل انظر أس. جامسكي S.Dziamski: مقدمة للفكر الفلسفي الماركسي.....، مصدر سابق.

⁸ انظر: أنتوني لابيرولا، خلاصة حول الفهم المادي للتاريخ، وارشو 1961، ص 128 (باللغة البولندية).

⁹ المصدر السابق، ص 91 - 92.

¹⁰ كما ورد عند ز. كلوزا- فولوشيفج، نظرية تطور الرأسمالية في مناقشات الاشتراكية الديمقراطية الألمانية 1891 - 1914. وارشو 1963 (باللغة البولندية).

وبالمقابل تُعير روزا لوكسمبورغ أهمية ملحوظة للصراع الطبقي في الفلسفة الإجتماعية الماركسية مانحة إياه الدور الأهم. إن الموضوعة القائلة بأن الصراع الإجتماعي يُكثف ويُسرّع تطور المجتمعات القائمة على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج هي، باعتقاد هذه المفكرة، ليس فقط صادقة فيما يتعلق بالماضي البعيد ولكنها تتمتع باهمية راهنة لأنها تسمح بتفسير العديد من الظواهر والعمليات الإجتماعية الراهنة.

تتجلى قيمة النظرية الماركسية بصدد الرأسمالية في نموذجيتها وانفتاحها على إستيعاب الظواهر الجديدة وتحليلها وإنتاج معرفة عنها. إن هذه النظرية، بحسب فهم لوكسمبورغ لها، تمثل نموذجاً مثالياً للتطبيق الفعال للمنهج الجدلي عند بحث الحقائق والعمليات الحاصلة في حياة الجماعات البشرية. ويبدو أنها عندما حددت أهمية نظرية الرأسمالية في الماركسية، فإن أساس هذا التقييم الرفيع يكمن في القناعة بأن هذه النظرية تتيح مواصلة البحث بصدد البنى (الهياكل) الإجتماعية الإقتصادية لهذه التشكيلة. إن كفاءة المنهج الماركسي، القائم على مستوى عالي (رفيع) من التجريد، وتاريخية هذا المنهج وجدليته، كلها شواهد على إيجابيات الماركسية، كمنهج لدراسة الواقع وإنتاج معرفة معللة عنه. وبحسب فهم روزا لوكسمبورغ، يعني تعبير " تاريخية الماركسية " عدم راهنية مضامين المذهب الماركسي المتعلقة بحقبة الرأسمالية التنافسية. وبكلمة أخرى فإن روزا لوكسمبورغ على قناعة تامة بأن القيمة التي لا تدحض للإنجاز العلمي لماركس إنما تتجسد ليس فيما هو صادق في فترة محددة مقارنة بالملوس الذي هو الواقع الإقتصادي - الإجتماعي، بل بما هو شامل في الماركسية (أي العام)، أي منهجها المادي - الجدلي - التاريخي، يليه من حيث الأهمية السياقات الماركسية المتعلقة بميكانيزمات واتجاهات تطور التشكيلة الرأسمالية.

وإذا ما قمنا بإعادة بناء التأويل الذي قدمته روزا لوكسمبورغ للماركسية، استناداً الى الأطروحات السابقة، نستطيع أن نميز بناء ثلاثي الأبعاد. يحتل الديالكتيك الموقع المركزي، تليه نظرية الصراعات الطبقيه، ومن ثم نظرية الرأسمالية، والاشتراكية العلمية وأطروحات وتشخيصات ماركس حول الطور الأول لهذه التشكيلة، أي رأسمالية المنافسة الحرة.

إن الخطأ الأساسي لبيرنشتاين، حسب اعتقاد روزا لوكسمبورغ (والذي كان يعني بالنسبة لها رفض الماركسية)، كان يتمثل في عدم ملاحظة القيم الجوهرية (المذكورة في المرتبة الأولى والثانية) فيما أنجزه ماركس. غير أن روزا لوكسمبورغ تركز اهتماماً أقل للاشترائية، التي غالباً ما تحدد من قبلها بمصطلح " الهدف النهائي ". وطبيعي أن هذا الأمر مفهوم إذا ما بصّر المرء نفسه بحقيقة أن صورة المجتمع الأمثل لم تُصغ بالتفصيل في أعمال ماركس، بل أن تلك الصورة/اللوحه كانت عمومية، ودُكرت بعدة عبارات من قبيل: الثورة البروليتارية كطريقة أو وسيلة للإطاحة بالرأسمالية يعقبها قيام دكتاتورية البروليتاريا والإصلاحات الإجتماعية. ومن هنا لم تحدد روزا لوكسمبورغ الإشتراكية بالتفصيل، بل إنها أثارت الانتباه الى الطريقة العلمية للقيادة وضرورة ذلك النظام. وقد كان خطأ الإشتراكيين الطوباويين، باعتقادها، يقوم على تعليل (تبرير) الحاجة لانبثاق نظام إجتماعي متناغم من خلال الدعوة الى " فكرة العدالة والصالح العام " ، وعلى تبيان عدم فاعلية النظام الرأسمالي.

ننتقل الآن الى القضية الأصعب، أي الى محاولة الإجابة على السؤال التالي: تحت تأثير أية عوامل، دون غيرها، توصلت روزا لوكسمبورغ الى إجراء هذه التراتيبية لمضامين الماركسية؟ قبل كل شيء لا بد من التأكيد على حقيقة أن دراسة كتاباتها المتنوعة لا تتيح لنا الإجابة الشافية على هذا السؤال، ولهذا فإن ما يقدم هنا يتمتع بقيمة افتراضية.

الخلفية التاريخية

بداية، يتعين التأكيد على أن تقييم روزا لوكسمبورغ للماركسية نجم، بشكل غير مباشر، عن مناخ ثقافي محدد للحقبة التي عاشت فيها. فقد كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمثابة فترة انتعاش العلوم الأمبريقية. وقد لعب الاختيار الواعي للقناعات الفلسفية المادية دوراً مهماً في علاقة روزا لوكسمبورغ بالماركسية. ويمكن أن يكون هذا الخيار واقعاً تحت تأثير الاكتشافات في البيولوجيا، التي أثارت اهتمامها على وجه الخصوص. وبحسب لوكسمبورغ فقد أدى المذهب الماركسي مختلف المتطلبات المطروحة على العلم. وعموماً، يمكن القول أن كل التيارات الفلسفية، التي إنبثقت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت واقعة تقريباً تحت تأثير العلوم الصرفة، وبالأخص الفيزياء (Empiriokrytycyzm) والبيولوجيا وكذلك فلسفة إيمانويل كانط.

وكان للتحليل والنقد الذي قامت به الماركسية لهذه التيارات تأثير كبير على تأويل روزا لوكسمبورغ للماركسية. فكما معلوم فإن الجيل الثاني من أنصار ماركس، الذين كانوا منغمرين حتى النخاع في المعارك الإيديولوجية المباشرة، غالباً ما بسطوا الماركسية وتناولوها بصيغة دوغمائية، وهو ما أشار إليه مؤسسوها¹¹. وقد لعبت أفكار وإطروحات برنشتاين دوراً هاماً في طرح مشكلة ما سمي بـ " أزمة الماركسية ". وكان موقف برنشتاين، بحسب لينين، يجد جذوره في الكانطية الجديدة وكذلك في الأمبريقية¹². وسهل مثل هذا الوضع مهمة خصوم الماركسية، فقد اتهم هؤلاء- (مثلاً جورج سوريل)- النظرية الماركسية بـ " الانتقاء الفلسفي " Elektyzm، وبـ " المادية المبتذلة " عند تفسير العملية التاريخية، ورفضوا نظرية الدولة، بما في ذلك على وجه الخصوص ديكتاتورية البروليتاريا. في حين كانت الحجج الرئيسية لحماية الماركسية والمدافعين عنها انذاك (بليخانوف، كاوتسكي، أنطوني لايبيرولا، لينين) تتبلور في نقطتين هما: القبول في إعادة النظر في التأويل المبسط للماركسية، مقابل ذلك عدم رفضهم لمشروعية المادية التاريخية¹³. وبهذه الروح كانت روزا لوكسمبورغ تتساجل مع أطروحات برنشتاين (1850 – 1932) الذي أنكر الجوهر الثوري للماركسية، وأعلن أن المهمة الوحيدة للحركة العمالية هي النضال في سبيل اصلاحات ترمي الى تحسين وضع العمال الاقتصادي في ظل الرأسمالية¹⁴. فقد رفضت موضوعاته الرئيسية حول عدم راهنية الماركسية مقارنة بالقدرات التكيفية للرأسمالية، وكذلك أطروحته حول إمكانات الانتقال السلمي (التحول التدريجي) من الرأسمالية الى الاشتراكية¹⁵. وهنا كانت روزا لوكسمبورغ على إتفاق مع الفكرة القائلة بأنه يمكن للمرء أن يعثر، في الإنجاز الكبير لماركس، على بعض الأفكار والاستنتاجات والتحليل التي تجاوزها الزمن، غير أن تلك الأفكار ليس هي الأهم في الماركسية، بإعتقادها. إن الخطأ الأساسي الذي ارتكبه برنشتاين، حسب لوكسمبورغ، يتمثل بقيامه بالترويج لفكرة التخلي عن الموضوعات الرئيسية للماركسية، أي الجدل، والنظرية الماركسية، وصراع الطبقات والاشتراكية. ما الذي تبقى، إذن، من الماركسية؟.

¹¹ أنظر : كارل ماركس، فردريك أنجلس، رسائل مختارة. وارشو 1982 (باللغة البولندية).

¹² أنظر : ف لينين، المادية والمذهب النقدي التجريبي. الأعمال الكاملة، المجلد 18، وارشو 1984. وأنظر كذلك : لينين، المادية ومذهب نقد التجربة، إعداد د. توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت 1979.

¹³ ي. بليخانوف، ضد التحريفية. وارشو 1953 (باللغة البولندية)، أ. لايبيرولا، حول ما يسمى بأزمة الماركسية. (في : خلاصة حول التنازل المادي للتاريخ. وارشو 1961 (باللغة البولندية)، ن. كاوتسكي، برنشتاين وبرنامج الاشتراكية الديمقراطية، كراكوف 1972 (باللغة البولندية)، ف. لينين، الماركسية والتحريفية، الأعمال الكاملة، الكتاب 15، مصدر سابق.

¹⁴ قامت روزا لوكسمبورغ بإنجاز هذه المهمة من خلال نشرها لسلسلة مقالات صدرت خلال الفترة من 21 الى 28 أيلول/1898 على صفحات جريدة Leipziger Volkszeitung. لمزيد من التفاصيل أنظر : روزا لوكسمبورغ، إصلاح اجتماعي أم ثورة. كتابات مختارة، المجلد الأول، وارشو 1959 (باللغة البولندية).

¹⁵ لمزيد من التفاصيل أنظر : أدوارد برنشتاين، مبادئ الاشتراكية. قضايا الاشتراكية الديمقراطية، مصدر سبق ذكره.